٧

الرَّدة

عاش تُبّع ما شاء له الله أن يعيش، ومات تُبع حين قضى الله عليه الموت. وكان قد أنفق حياته منذ عاد إلى اليمن فى صلاح ونسك، وتفقه للتوراة ونشر للدين. فلما فارق هذه الدنيا نهض بملك حمير من بعده أكبر أبنائه حسّان، وكان نقيًا، وكان ورعًا، وكان دبَّانًا، وكان قد ورث عن أبيه وعن أجداده حبًا للغزو وكلفًا بالفتوح. وكان الناس يتنبئون قبل تهوّد أبيه بأنه سيكون أبعد ملوك اليمن أثرًا فى الغزو والفتح، وأعظمهم بسطة فى الملك والسلطان. فلما هاد تبع اقتفى حسان أثره، فظهر عليه حب للنسك وانقطاع للعبادة، ورغبة فى الفقه بالدين، خدع الناس عنه، وغير رغبتهم فيه. حتى إذا نهض بأمور الملك لم يشك أصحابه فى أن اليمن ستنفق أيامًا هادئة وادعة، تنعم فيها بالأمن والسلم واللين. ولكن الميل القديم الذى كان يجده حسان إلى الحرب والتسلط، والميل الجديد الذى كان يجده إلى الفقه والدين، لم يلبثا أن التقيا وامتزجا وأصبحا ميلاً واحدًا يوفق بين هاتين النزعتين المختلفتين أشد الاختلاف. وأصبح حسان ذات يوم ماضى العِزم، شديد البأس، عظيم النشاط؛ فلم يكد يخرج للناس حتى دعا إليه الحبرين، وكان لهما معظمًا يستشيرهما فى كل ما يأتى من الأمر. فلما أدخلا عليه قام لهما وأدنى مكانهما، ثم قال: قد علمتما أنى أعظَّم من أمركما ما كان يُعظم أبى، وأشاوركم فى كل ما أنشط له من هَم قريب أو بعيد. وقد جعلت منذ أيام اسمع داعيًا قويًا ملحًا لا يفارقنى يقظان، ولا يفصل عنى دائمًا، وهو يُهيب بى فى كل لحظة أن جَردْ نفسك وجيشك لجهاد الكافرين ونشر الدعوة إلى الدين، حتى يؤمن بكتاب الله أهلُ الشرق والغرب، وحتى يُذعنَ لسلطان الله كل جيل فى الأرض، وحتى يُصبح حُكم التوراة حُكم الناس جميعًا.

وقد أنكرت دعوة هذا الداعى أول الأمر، فلم يزده الإنكار إلا إلحاحًا فى الدعاء. وأبيتُ عليه بعد ذلك فلم يَزده الإباء إلا إصرارًا على ما كان يدعونى إلهى. وإنى لأتحدث إليكما الآن وصوته الملح الحازم يملأ سمعى وقلبى وعقلى، ويكاد يلهينى عنكما ويصرفنى عما أريد أن أقول لكما. وقد عزمت بعد طول التفكير أن أستجيب لهذا الداعى، وأن أخرج بالجيش غازيًا فى سبيل الله ما يلينى من الأرض؛ فإن قضى الله لى بالنصر مضيت أمامى حتى يأذن الله لى بالوقوف. ثم سكت ينتظر جواب الحبرين وهو يقدر أن كلامه قد وقع منهما موضع الرضا. ولكن عَظُمَ دهشة حين سمعهما ينصحان له بالقعود ويلحان عليه فى ألا يسمع لهذا الصوت ولا يستجيب لهذا الدعاء، وهما يقولان له: أيها الملك؛ إياك والغرور الذى يصيب الملوك إذا عظم بأسهم، واشتدت قوتهم، ودانت لهم الأرض بمن فيها وما عليها، فيغريهم بالحرب، ويدفعهم على الفتح،

ويحبب إليهم العدوان. قال: أعدوان أن أنشر دين الله وآخذ الناس بالإذعان له والإيمان به، وأذود عنهم شر الأوثان وأطهّرهم من رجس الشيطان؟! قد دعوتكما وما أنتظر منكما إلا حيًا لى على أن أمضى فيما عزمت عليه، فإذا أنتما تصداننى وتخذلاننى، وتؤثران لى حياة الخمول والخمود والتقصير. قالا: فإنا نخشى أن يكون هذا الصوت الذى يدعوك ويلح عليك صوت الغرور والكبرياء، لا صوت الطاعة والتقوى، وأن يكون هذا الحديث الذى يلقيه فى رُوعك تزيينًا لما ورثت عن آبائك من حب الغلب وبسط السلطان، يدفعك إلى الحرب باسم الدين، ويصور لك الفتح فى صورة الدعوة إلى الله. ونحن نجد فيما عندنا من العلم أن هذا الدين لا ينشر ولا يذاع على هذا النحو الذى تريد أن تنحوه. ونجد مكتوبًا عندنا فى الكتب أن الدين الذى سيبسط سلطانه على الأرض فيلمؤها عدلاً بعد ما مُلئت جورًا، ويملؤها عزًا بعد أن ملئت ذُلاً، ويرد إلى الإنسان حريته وكرامته، ويرقى بنفسه إلى أسمى ما تطمح إليه من الكمال، ويُحقق الأخوة بين الناس ويُلغى ما بينهم من الفروق، لن يخرج من صنعاء،وإنما سيهبط به الوحى فى آخر الزمان على رجل بمكة من قريش، ثم يخرج من يثرب فيطبَّق أقطار الأرض. فإذا شئت أيها الملك، فاسمع لنا وأعرض عن داعيك؛ فإنه لا يدعوك إلى خير. قال الملك: ما رأيت كاليوم صدًا عن الحق ولا صرفًا عن الواجب، ولا تثبيطًا للهمم! وهمّ أن يعرض عليه؛ فقد أدخل أبوك دين الله فى هذه البلاد وأذاعه فيها، ومضيت أنت على سنته دهرًا، ولكنك لم تبلغ من ذلك ما ينبغي؛ فما زالت حمير قلوبٌ لم تُخلص لهذا الدين،وما زالت فى أعماق اليمن أوثانٌ منصوبةٌ تهفوا إليها قلوبُ قوم لم تبلغهم دعوة الله بعدُ؛ فثبَّت هذا الدين فى بلادك قبل أن تخرج به إلى غيرها من البلاد؛ فذلك آمنُ لك، وأحرى ألا تؤخذ على غرّة، وألا ينتقض عليك قوم ليس لهم من الإيمان واليقين مثل ما لك، أو يغدر بك قوم ما تزال فى نفوسهم بقية من حنين إلى دين آبائهم الأولين. قال الملكُ معرضًا عنهما: قد سمعتُ قولكما وسأنظر فهى. ثم لم ينظر بعد ذلك إلا فى التهيؤ للحرب والاستعداد للرحيل. وانقطع الحبران عن الملك ولم يَدعُها الملك إليه. وأذن مؤذن الملك فى الجيش بالرحيل. وفصَل الملك عن صنعاء لم يلقَ الحبرين ولم يودّعهما. ومضى الملك أمامه فى طريق سهلة وشعوب سلم لا يلقى خوفًا ولا يتعرض لكيد حتى بلغ البحرين.

فلما أحس قادة الجيش من الأقيال والأذواء أن الأمد يبعدُ بينهم وبين اليمن من يوم إلى يوم، وأنهم مشرفون على بلاد لم يألفوها، وأنهم يُدفعون إلى حرب لا يفقهون غايتها كما كانوا يفقهون غايات الحرب من قبل، وأنهم سيضيَّق عليهم حين يظفرون فيما تحتوى أيديهم من سبى ومال، ضاقوا بهذه الرحلة، وثقلت عليهم هذه الحرب. وطال عليهم عمر الملك، فسعى بعضهم إلى بعض وتحدث بعضهم إلى بعض، وما هى إلا أن تجتمع كلمتهم على الكيد لحان والبغى عليه، فيلقون أخاه عمرًا، وكان خفيف الحلم سريعًا إلى اللهو مُتعجلاً الملك، لم تُخلص نفسه لهذا

الدين الجديد، ولم تَطب عما كان لحمير من سُنة موروثة وعادة مألوفة وتُراث قديم. فلما أظهروه على أنفسهم، وعاهدوه على أن يملكوه إن قتل أخاه، ولا يقتضوه على ذلك أجرًا إلا أن يردهم إلى بلادهم ويرفع عنهم ثقل هذه الحرب، نشط لذلك وجدَّ فهى. ولم يجد من خاصته وأصفيائه من يرده عن ذلك أو يخوفه من شره إلا رجلاً واحدًا من الأذواء يقال له ذو رُعين؛ فإن هذا الرجل خوف عمرًا عاقبة البغى وحذّره من العدوان على الإخوان، وجدَّ فى صرفه عن سفك دم أخيه: يذكره بالرحم حينًا، وبشرف الملوك حينًا آخر، وبحرمة الدين مرة ثالثة،ولكنه لا يجد منه إلا إعراضًا يكاد يبلغ الغضب ويثير الريبة وسوء الظن. فلما يئس منه دفع إليه كتابًا مختومًا وقال له: احفظ لى هذا الكتاب. ثم أتم عمرو كيده، فأغمد النصل فى صدر أخيه، وارتقى على جثته إلى العرش، وأسرع بالجيش قافلاً إلى صنعاء، معلنًا إبطال ما كان أبوه وأخوه قد أقاما من معالم الدين الجديد، مزمعًا قتل الحبرين، ولكنه لم يجدهما؛ فقد هلكا بعد أن فصل الجيش من صنعاء.

ولم يستمتع عمرو بالملك ولا ذاق لذة السلطان؛ فقد أخذ الحزن يلزمه منذ بلغ صنعاء، لا يفارقه ما أبيض النهار، ولا يفارقه ما أسود الليل. وأخذ هذا الحزن يشتد ويقسو، وأخذ هذا الحزن يعظم ويطغى، حتى زاد عن نفس الملك كل راحة، وردّ عن عين الملك كل نوم، وأحاط شخص الملك بصور مروعة مزعجة: فكان تارةً يرى حيات عظامًا ذوات رؤوس عدة يخرج من أفواها اللهبُ وهى تسرع إليه فاغرةً أفواهها، كأنما تريد أن تزد ردّة ازدرادًا. وكان يرى تارة أخرى أنهارًا من الدم قويةً عنيفة، تنحدر ولها هديرٌ وزئير، كأنما تريد أن تأخذ عليه كل مكان وأن تلتهمه التهامًا. وكان يرى تارة أخرى أشباحًا تدنو منه لتبعد عنه، ثم ترتد إليه فتطيف به وتدور حوله وقد كشرت عن أنياب حادة، ومدَّ أظافر دامية، كأنما تريد أن تَنهسه[1] نهسًا وتمزقه تمزيقًا. وكان فى أثناء هذا كله يسمع أنين أخيه. ويرى الدم يتفجر من صدره كما يتفجر الينبوع الضئيل القوى من الصخرة الصلبة الملساء. وأخذ الملك يستشير الأطباء فلا يجد عندهم دواء،ويستعين الكهان فلا يلقى عندهم عونًا، ويسأل العرافين فلا يظفر منهم بجواب مريح. وما زال فيما هو فيه من استشارة واستعانة وسؤال حتى أدخل عليه رجل حكيم من أقاصى اليمن. وقص عليه ما يأتى من الأمر، وصَورَ له الملك ما يلقى من الشر، وألحّ عليه الملك فى أن يجد له من هذا الضيق مخرجًا ومن هذا الأذى شفاء. وأطرقَ الرجل الحكيم غير قليل، ثم قال فى صوت حازم وقد ظهرت على وجهه صرامة الجد والبأس: أيها الملك، لأنبئنك بالحق وإن كان من دونه الموت، فما تعودت كذبًا ولا مينًا. إنه والله ما قتل رجل أخاه، ولا غمس رجل يده فى دم ذى رحم إلا سُلط عليه الحزن والغم، وَوُكِّل به الفرق والأرق حتى يقضى. قال الملك انصرف راشدًا فلا بأس عليك!

---

(١) النهس بالسين: كالنهش بالشين.

إنما السبيل على هؤلاء الذين كادوا الكيد، ومكروا مكرهم السيئ بى وبحسان، ثم أمن فى خاصته ومشيريه قتلاً وتمثيلاً حتى انتهى إلى آخرهم ذى رُعين. فلما قُدم هذا القتيلُ للقتل قال للملك: إن لى عندك براءة. قال الملك: وما ذاك؟ قال ذو رُعين: ذلك الكتاب المختوم الذى دفعته إليك. وأخرج الملك الكتاب وقرأ فيه هذين البيتين:

ألا مـن يشـترى سـهرًا بنـومٍ سـعيدٌ مـن يبيـت قريـرَ عَـين

فإمـا حِمْيَـرٌ غـدرت وخانـت فمعـذرةُ الإلـه لـذى رُعـين

قال الملك: لا بأس عليك، فقد نصحت وبررت وبرئت ذمتك، فليتنى قبلتُ نصحك واستمعت لدعائك! قال ذو رُعين: وليت أخاك قَبل نصح الحبرين. وأصبح القصر ذات يوم فإذا عمرو ملقى على الأرض مُضرَّجًا بدمائه، قد أغمد فى صدره ذلك النصل الذى أغمده فى صدر أخيه.. هناك تفرق أمر حمير وانتقص سلطانها، وعادت إلى شر ما عُرفت فى قديم الزمان من الفساد والاضطراب.